تقديم

بقلم الدكتور شاكر الفحام

احتلّ الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١هـ) المكانة العالية بين علماء عصره، أهّلته لذلك مواهبه العلمية المتميزة، ومقدرته البالغة.

لقد نشأ في بيت علم وفضل، وعُنيت أسرته بتعليمه ورعايته، فسمّعه أخوه الأكبر صائن الدين هبة الله بن الحسن (٤٨٨ ـ ٥٦٣هـ) وهو مايزال في السادسة من عمره، وقرأ على أبيه الحسن بن هبة الله (٤٦٠ ـ ٥١٩هـ) وعدّه من شيوخه[١]. وتجلّت عليه أمارات النجابة والذكاء، ورُزق قوة الحافظة، وعُرف بالجدّ في طلب العلم والانقطاع إليه، زاهداً في كل ماسواه. فمضى على سَنَنه يقرأ ويدرُس حتى إذا استوفى غايته من مجالسة العلماء في دمشق طمحت به همته للسفر إلى العراق، ليقضي في أكنافه خمس سنوات (٥٢٠ ـ ٥٢٥هـ) يقرأ على علمائه، دائباً في درسه على كبار الشيوخ، لايعرف الملل ولا الكلال.

ولما عاد إلى دمشق عاوده الحنين إلى السفر طلباً للعلم، فكانت رحلته الثانية إلى خراسان (٥٢٩ ـ ٥٣٣) ولبث فيها أربع سنين يجول في بلدانها، يجالس الشيوخ، ويقرأ عليهم حتى روّى نفسه النهمة إلى المعرفة.

---

(١) معجم الشيوخ ١: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

وقفل راجعاً إلى دمشق ليلقي فيها عصا الترحال، وليقف حياته لمتابعة العلم الذي ملك عليه نفسه، وللتدريس والتأليف، وشرع في عمله ومانصب له نفسه ثمانية وثلاثين عاماً دون توقف حتى وافاه اليقين. سئل عنه ابنه القاسم فقال: «لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع حتى في نُزَهِهِ وخلواته»[1]. وقد بهر علماء عصره بسعة حفظه وغزارة معارفه، وأَدْهَشَهُم بكثرة تآليفه وتنوعها[2].

على أن الغالب على الإمام الحافظ الحديثُ والتاريخ. ويأتي كتابه الخالد على الدهر «تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حلّها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها» مثلاً حيّاً على قدرة الإمام الحافظ الخارقة، وبُعد همته، وتفوقه في علمي الحديث والتاريخ. فالكتاب ثمانون مجلدة أحاط بالمادة التي تصدّى لجمعها إحاطة السوار بالمعصم، واستوعب موضوعاته فما يكاد يغادر منها شيئاً، وقد أثنى عليه العلماء قديماً وحديثاً أجمل الثناء. يقول ابن خلكان: «صنّف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة أتى فيه بالعجائب»[3]. وينهض مجمع اللغة العربية بدمشق بطبع الكتاب، وقد أصدر منه ثلاثاً وعشرين مجلدةً. وإننا لنرجو أن نوفق لإسراع الخطا كي ننجز طبع هذا الكتاب العظيم و «عندَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى»[4].

---

(١) معجم الأدباء ٤: ١٧٠٢ (ط. الدكتور إحسان عباس).

(٢) بلغ بها الدكتور كوركيس عواد ثلاثة وتسعين ومئة مؤلف، وقد أشار الدكتور كوركيس نفسه أن ثمة أسماء مكررة للكتاب الواحد، كذلك فإن كثيراً من هذه الكتب إنما هي أجزاء صغيرة (ابن عساكر في ذكرى مرور تسع مئة سنة على ولادته/ جزء المحاضرات، ص ٤٢١ ـ ٤٧٤).

(٣) وفيات الأعيان ٣: ٣١٠.

(٤) ظهرت طبعة لكتاب تاريخ مدينة دمشق ضعيفة التحقيق، كما ظهرت مجلدات متفرقة، =

ومن أبرز كتب الحافظ التي طبعت:

١ـ المعجم المشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة النَبَل، تحقيق الأستاذة سكينة الشهابي(دمشق ١٩٨٠م)

٢ـ كتاب الأربعين البلدانية، تحقيق الأستاذ محمد مطيع الحافظ (دمشق ١٩٩٢م)

٣ـ تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري (دمشق ١٩٧٨م)

٤ـ كشف المغطّى في فضل الموطّا (مصر ١٩٥٤م)

٥ـ ترتيب الصحابة في مسند أحمد، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري (بيروت ١٩٨٩م)

٦ـ أخبار لحفظ القرآن، تحقيق الأستاذ خير الله الشريف (دمشق ١٩٩٦م)[١].

ولعل المستقبل يتيح لنا أن نطلع على نفائس جديدة من كتب الإمام الحافظ ينهض بها العلماء المحققون.

ليس من همي هنا أن أترجم للإمام الحافظ[٢] وإنما هي توطئة

= منها: (تراجم النساء، عبد الله بن عمران ـ عبد الله بن قيس، عمر بن الخطاب، عمر ابن خيران ـ عمرو بن بحر) وهذه المجلدات الأربع بتحقيق الأستاذة سكينة الشهابي، وصدرت مجلدة علي بن أبي طالب بتحقيق محمد باقر المحمودي، وهناك تراجم مفردة مستلّة من التاريخ مثل: الحسن بن علي، الحسين بن علي، زين العابدين علي ابن الحسين، الزهري، أبو هريرة.

(١) اكتفينا بذكر طبعة واحدة لما تكرر طبعه، وتجد جملة أخرى من كتب الإمام الحافظ المطبوعة في الأربعين البلدانية ١١ ـ ١٢، وأخبار لحفظ القرآن: ٥ ـ ٩.

(٢) انظر مصادر ترجمة الإمام الحافظ في كتاب معجم الشيوخ ١: ٢٣ ـ ٢٨، وفي كتاب معجم الأدباء ٤: ١٦٩٧، الحاشية (ط، الأستاذ: إحسان عباس)، وفي كتاب: ابن=

لأتحدث عن كتاب من كتبه الجليلة الممتعة المفيدة أَذِنَ الله أن يطبع وهو كتاب «معجم الشيوخ»، هذا الكتاب الذي طال انتظاره، وتشوُّفُ الناس لظهوره، وكثرت الدواعي إلى نشره، ولكن المحققين كانوا يتباعدون عن خوض هذه اللجة لأن الكتاب لم تُعرف له إلا نسخة مخطوطة وحيدة.

وقدّر الله أن يتصدى لطبع هذا الكتاب النفيس الأستاذة الدكتورة وفاء تقي الدين التي أعدّت للأمر عدته، وأقدمت وهي تدرك ماينتظرها من عقبات ومثبّطات، ولكنها الهمة العالية والعزم والتصميم، يصحبها تأييد الله وعونه، قد رافقتها في رحلتها الصعبة فقضت في التحقيق سنوات وسنوات(١). وكان لها في تجربتها السابقة في التحقيق وفي البحث خير معين. فقد حققت كتاب التنوير في الاصطلاحات الطبية لأبي منصور القمري (دمشق ١٩٩١م)، وقدمت دراساتها النفيسة في معجم مصطلحات الصيدلة والعقاقير في كتاب القانون لابن سينا(٢). وقد وُفّقت، بحمد الله وعونه، في تحقيق معجم الشيوخ التحقيق كله.

بدأت فقدّمت بين يدي الكتاب دراسة ممتعة معمقة (ص ١ ـ ٩٠) تناولت عصر المصنف وحياته، ثم وقفت عند كتابه معجم الشيوخ، فوصفت النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة في اصطنبول(٣)، وأشارت إلى ملاحظها بشأن المخطوطة إشارة خبير متقن، وتبين لها أن مالك النسخة هو رضي الدين أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبي بكر عبد الله بن

= عساكر في ذكرى مرور تسع مئة سنة على ولادته/ جزء التراجم. ومن الكتب التي ألفت في سيرة الحافظ: كتاب ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية للأستاذ أحمد عبد الكريم الحلواني (دمشق ـ ١٩٩١م).

(١) معجم الشيوخ ١: ٨٩.

(٢) تنشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق بدءاً من المجلد (٦٨) من المجلة.

(٣) معجم الشيوخ ١: ٧٢ ـ ٨١.

خليل الذي قرأها، وأخذ الإجازة بها من تاج الدين أبي الحسن عبد الوهاب بن الحسن زين الأمناء (٥٤٤ ـ ٦٢٧هـ) بن محمد أخي الإمام الحافظ. وأتاحت لها الدراسة المدققة أن تردّ أوراق المخطوطة التي زاحت إلى حاقّ موضعها، ونبهت على الساقط منها، وأشارت إلى ماكتب في الحواشي من أسماء شيوخ، ومن إصلاح أغلاط، ومن ذكر مقابلات عند نهاية كل جزء، وحرصت على إيراد التعليقات والإضافات والبلاغات، ومضت على طريقتها في التدقيق والإشارة إلى كل مايجيء في الحواشي، لم تغادر منه شيئاً، لتنتهي إلى أن النسخة الخطية «نسخة نفيسة قريبة عهد بالمصنف، قُرئت مرات عدة على تلامذته وأقاربه، وعورضت بأصلها المكتوب بخط المصنف نفسه ثلاث مرات على الأقل، وضبطت ضبطاً ممتازاً». وختمت دراستها بذكر المنهج الذي التزمته في تحقيق الكتاب[1].

ولقد أحسنت الإحسان كله، وبينت الطرائق التي اتبعتها للتغلب على المصاعب التي واجهتها، من مثل خرم يقابلها، أو أوراق زاحت عن موضعها، أو غموض، ودلّت في الحاشية على ماأدّاها إليه الاجتهاد والدرس. ثم بحثت عن موارد الترجمة لكل شيخ ذكره الحافظ لتثبتها في الحاشية، وهذا عمل شاقّ مضنٍ، إذا علمنا أن عدد الشيوخ في المعجم قد بلغ (١٦٢١) شيخ. والتزمت بتخريج الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة وشرح الغامض من الكلام اعتماداً على معجمات اللغة، وأفادت كثيراً من كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر في تفسير الأحاديث خاصة.

---

(١) معجم الشيوخ ١ : ٨٧ ـ ٩٠.

ولم تهمل تبيان المواضع وأسماء البلدان وذكر ماجاء من الخلاف بين الكتب إن وقع.

ومن محاسن ماقامت به أنها كانت تشير إلى مواضع النصوص التي تكررت في الكتاب ليكون القارىء على بيّنة، وهذا العمل على صعوبته، ضروري ومن متطلبات التحقيق.

وإنك لتتبين جهد الأستاذة المحققة في كل صفحة من صفحات الكتاب، وإن تعليقاتها المختلفة لتدل على الثقافة الواسعة التي تتمتع بها، وإحاطتها بكتب التراث وصلتها الوثيقة بها، واطلاعها على المصادر والمراجع[١].

وقد ختمت الكتاب المحقق بطائفة من الفهارس (٢: ١٢٤١ ـ ١٦١٨) التي تيسر على القارىء الوصول إلى مطلبه في سهولة ويسر في هذا الكتاب الضخم.

لاأملك إلا أن أهنىء الأستاذة المحققة بهذا الجهد المبذول، وماقُدّر لها من نشر الكتاب أقرب مايكون إلى أصله، وماأغنته به من تعليقات وحواش لاحت كأنها اللآلىء، فجزاها الله خير الجزاء على ماقدمت: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[٢].

* * *

---

(١) انظر فهرس المصادر والمراجع المخطوطة والمطبوعة (معجم الشيوخ ٢: ١٦١٩ ـ ١٦٣١).

(٢) سورة المزمل: ٢٠.